

## العمدة

### وأثره في الإصلاح الاجتماعي

للاستاذ حسن علوان

المدرس بالمدراس الثانوية

نظام العمدة في البلاد المصرية من خير النظم التي تلائم طبيعة الريفيين وتشا كل غرائزهم ، إذ هو يجعل كبير القرية حاكمها فلا يشمر المحكومون معه بغضاضة أو خروج عن حدود ما ألفوا . والريفي بطبعه نفور من الحاكم الغريب معرض عنه . فهو لا يفضى إليه بسر ولا يلقاه بصراحة ، وإنما يصطنع معه الحيلة والمصانعة ويتبع المكر والمداورة ويأنف أن يطلعه على عوره أو يظهره على سونه ، بينما تراه يبت لعمدته همه وحزنه ويكشف له عن دخيلة نفسه ويقفه على ما خفى من تديره وكيد ، ولا ضير عليه أن يعرف العمدة تقائمه أو يتبين عيوبه ، لأنه نشأ حيث نشأ وألف في حياة القرية ما ألف . وهذا القروي لا يخلو أن يكون للعمدة قريبا أو صهرا أو جارا أو صاحبا أو زارعا أو مستأجرا ، تجمع بينهما بأساء الحياة وتعاؤها ، فتراعما متقابلين في ولائم الأفراح وجزازات الموت وفي صلاة الجماعة في المسجد وفي سهرات رمضان وفي المجالس التي تعقد لحل المشا كل وفض الخصومات .

ومن ثم كانت الحياة السعيدة في القرية متوقفة على العمدة الصالح ، لأنه من أهل بلده كالرأس للجسم . فمتى كان العمدة صالحا صاح أكثر أهل القرية وسعدت حياتهم ، وتعاونوا على الخير والمعروف ، وسرت فيهم روح المحبة والتعاطف ، ومتى كان العمدة سيئا حدث عن الجرائم ترتكب ، والشهادات تزور ، وقل ما شئت من الشقاق والتفاق والإثم والعدوان وتدير المكائد والاغضاء عن المجرمين ، واتهام الأبرياء المساكين .

وليس صلاح العمدة محصورا في كرم أخلاقه وطهارة ذمته فحسب ، ولكنه مع هذا يجب أن يكون رجلا جم النشاط ، عظيم الغيرة ، يقظا ، كثير التجارب ، دائم الاتصال بأهل القرية ، عليا بما يسرون وما يعلنون ، وما يحبون وما يكرهون ، رقيقا في حزم ، قويا في غير عنف ، يسوى بين الناس ، ويؤثر مصالحة أهل القرية على شواه ، لا يستمع لو شاية ، ولا ينصرف رقيقا على فريق ، ولا يلجأ إلى الشدة حيث يصلح اللين ، ولا يسارع إلى الغضب حيث ينفع الحلم ، يشاورهم في الأمر ، ولا يفضى لإنسان على حقوة ها ثم يأخذها آخر هناك كما أن هناك أبوابا كثيرة أمام العمدة النشط الصالح ، لو وجه إليها اهتمامه وعنايته في قريته لفهم منصبه كما يجب أن يكون ، وشعر براحة الضمير ، واستحق الزعامة على أهل

القرية فالتفوا حوله بقلوبهم وعواطفهم ، وشاعت آثاره بين مواطنيه وأولى الأمر ، ففتح باحترام هؤلاء وتقدير هؤلاء ، وشمرت الحكومة بمخدماته الاجتماعية وجهده المشكور في النهوض القومي فعملت على مكافأته أدبيا بنح الأوسمة والرتب وأذاعت عنه ما يرفع قدره ويعظم من شأنه بين أهل وطنه ، وأصبحت قرية مثابة لمن ينشد الراحة والاستجمام في ظل الهدوء والسكون الريفي ، بعيدا عن ضوضاء المدينة ، وزياط المقاهي ، وزحمة الشوارع والميادين .

### العمدة وتجميل القرية :

نفي إمكان العمدة أن يوجه نشاطه وعنايته الى تزيين قريته ، وتنظيفها وتنسيق طرقها ، وغرس الأشجار فيها ، وإبعاد الحظائر عن حجرات النوم ، ونقل أكوام السباخ بعيدا عن المساكن ، وردم المستنقعات ، وتغطية الآبار ، ووضع الطلمبات أمام أبواب الشوارع والأزقة ، ثم يعهد الى كل بيت بالقيام بكنس الشارع ورشه يوما في الأسبوع أو يومين ؛ وأن يكلفهم أن يضعوا برميلا أو صندوقا تلي فيه الخرق والقمامات والنس والورق وما الى ذلك وأن يكمل الى خفير الحى بانارة فانوس أو فانوسين في كل شارع لقاء ملائم يدفعها كل بيت في الشهر ، وأن يتعاون سكان الحى أو الشارع في بناء مرافق تحتوى على حمامين ومرحاضين مثلا فيخصص أحدهما للرجال وآخر للنساء ، ويختلف اليها رقيقو الحال الذين يتمتعهم ضيق اليد من إنشاء مرافق خاصة في منازلهم . فهذه أشياء نسوقها على سبيل المثال . وفي إمكان العمدة الشيط أن يقوم بها فيخلق القرية خلقا آخر ، وينشئها في صورة موقنة جميلة ، ويجعل لها رواء وروفا يجيب الناس في الإقامة بها ، ويرغبهم فيها ، فتصير الحياة فيها سعيدة ، والإقامة محبوبة ، والصحة مكفولة .

ولسنا حيننا نطلب الى العمدة أن يقوم بتلك الأعمال في قريته ، نكلفه شططا ، أو نحمل الريفيين من أمرها عمرا أو رحقا ، فهي أمور كل مؤوتها نشاط من العمدة ، واتصال بأهل القرية ، ومراقبة لأعمالهم وتصرفاتهم ومداومة على نصحهم وإرشادهم وتبشيرهم بالعمل وإرشادهم الى خير السبل وأخذهم بتليل من النظام وأشمارهم بفائدة التعاون ، وبأن الفرد يبذل القليل في سبيل التعاون ليحظى من ورائه الخير الكثير .

ونود ألا يدخل في بال أحد أن يزيد من العمدة أن تم ومائل التجميل في قريته بين عشية وضحاها ، أو أن يياشرا بوسائل المنف والقوة بين الفلاحين ، فينفروا منها ، ويتجافوا عنها ، ولكنه يصطنع في ذلك اللباقة والمهارة والترغيب وإقناع الفلاح أن كل ما يطلب منه أدائه إنما هو في سبيل مصاحته ، والحرص على توفير مساعده ، وصون صحته ، فلا يداخله تلقاها ضجر أو ملل ، ولا يبدو منه إزاءها نفور أو كسل .

كما أن العمدة يمكن أن يضمن نجاح مقصده إذا كان نهازا للفرص، موافقا في استغلال المناسبات ، فكثير من الفلاحين إزاء ضيق منازلهم القديمة ، وكثرة أفراد الأسرة ، واطراد النمو الذي يقضى بالتوسع ، يخرجون إلى فضاء حول القرية فينشئون فيه مساكن جديدة ، حينئذ يبادر إلى مشاركتهم الرأي، ومشاركتهم في رسم المنزل، وترغيبهم في ترك فضاء حوله ، وإنشاء النوافذ التي تنسج للضوء والحرارة والهواء وغرس بعض الأشجار المورقة، والشجيرات المزهرة، وجعل حظيرة البهائم في مكان خاص، وتحويط المنزل بسور تلتق داخله بظاهر الدار أكوام الحطب التي كثيرا ما يسبب تكديسها على السطح حرائق تذهب بالأموال والأرواح ، وتجرح الويلات على الجيرة وجيرة الجيرة . كما أنه يشاركونهم برأيه في العمل على توسيع الشارع وجعله مستقيما منتظما ، ومتى أفادح العمدة في إقناع واحد أو اثنين ببناء منزله في وضع صحى مقبول جرى على منواله غيره، إذ أن الفلاح ميال بفطرته للحاكاة، مولع بالمنافسة والتقليد.

وأظن أن العمدة إذا رغب إلى أهل قريته في أن يتلوا أكوام السباخ من الحظائر إلى الحقول مباشرة دون أن تكس أمم المنازل وتضيق بها الأزقة ، وتنبعث منها الروائح الكريهة وتتمو فيها الحشرات وجرائم الأمراض، وتفسد الهواء، وتتذى العيون؛ أظن العمدة إذا رغب إليهم في ذلك ما امتنعوا وسارعوا إليه وتعودوه، وهذا أمر لا يكلف العمدة والفلاح إلا شيئا من المراقبة والنصيحة ، فيجئ آخر الأمر وقد ألف تكويم السباخ في الحقل ، ونفر من تكويمه بين منازل القرية. ومن ذا الذي يمتنع عن أن يكل إلى ابنه أو بنته كس الشارع في نوبته مادام كل منزل سيؤدى هذه المهمة ؟ فيخلص جو القرية من الغبار النائر والتراب المنطائر، الذي يصيب الأطفال بالرمد والعمى ، ويقطع الحناجر ويمزق الصدور .

ولعل الناس حينما يسمعون أننا نريد من العمدة أن يوحى للفلاحين بإنشاء مرافق في كل شارع أوحى تحتوى على حمامات ومراحيض، يتعاضدهم الأمر، ويرغمون أن هذا تكليف فوق وسع الفلاحين وأكثر من طاقتهم ، مع أن سكان شارع واحد أو بذلوا في سبيل ذلك ما يبذلون في زيارة الأولياء ، وما يعملون للنذور، وينفقون بين القبور، ويبددون في المآتم، لأدى كل ذلك ما يزيد وأكثر مما نريد ، وجنوا من جرائمه نظافة أبادانهم ، وستر عوراتهم ، وصيانة كرامتهم، ويسمو بنفوسهم عن أن تكون كالبهائم تبرز في الشوارع وتحت الجدران وبين الخربات والتلال ، بحال تنقرز منها الآداب ، وتابادا الكرامة ، ولا يرضى عنها خلق أودين .

ريفنا المعمرى جميل ، والحمد لهم الذين يظهرون هذا الجمال على أعمه ، بمقدار غيرة كل على بلده ، وبذاه النصائح لأهله . أمام الحمد ميدان واسع يستطيعون فيه أن ينبهوا الأمة حكومة وشعبا إلى مهمتهم العظيمة ومسئوليتهم الكبرى ، ويحتلوا مكانهم من التجلة والتقدير،

عذلك بأن ينشئوا القرية من جديد، ويستبدلوا بشكلها القبيح المشوه البالي القدر المتعرج ،  
صورة للجمال والتنسيق والنظافة والاستواء ، فيقصدوا كل مكود معنى ينشد الصحة والاستجمام  
في ظل الهدوء والسكون ، ولا يفرون منها كما يفرون من العدو ويهرب من البلاء .

مصر جميلة بهوائها وسمائها وأرضها وغرسها وأهلها ، ولكن هذا الجمال لا يكشف عنه  
إلا عناية العمدة بتنظيف قراهم وتنسيقها وعرضها في صور جميلة وبذا يستطيعون أن يحسوا  
العار الذي لحقها من تهاونهم والخراب الذي حل بها من إهمالهم ، فلقد أصبحت القرى المصرية  
لا تذكر الا ذكر بجانها المرض والقبح وفرار الناس منها . ومتى عاد إليها جمالها كثر سكانها  
وحسنت سمعتها وظهرت مزياتها . واعتقد أن العمدة الذي يطعم في بناء مجد عاجل أو يجب  
أن يظفر بسمعة طيبة ، وكسب تقدير الحكومة ، يمكنه أن يتهم تلك الفرصة فيسرع الى  
تجميل قريته ، وتبديع الناس إليها ودعوتهم الى زيارتها وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

### العمدة وتحسين الصحة والمعيشة القروية :

والعمدة الصالح هو الذي تعنيه صحة أهل قريته ، وتحسين معيشتهم ، وتنظيم حياتهم ،  
فلا يندحر وسعا في ارشادهم الى وسائل المحافظة على الصحة وطرق الوقاية من العلل والأمراض  
ولديه المأذون ومعلمو المدارس الأولية والمستنيرون من أهل القرية يستطيع بفضل  
عنايته وغيرته ونشاطه ، أن يذهبهم في نواحيها ، ويبعثهم الى مجتمعاتها في كل مناسبة فيعلموا  
ويرشدوا . ولا يشق عليه أن يشترك أهل القرية جميعا في شراء " راديو " يلتفون حوله  
في المساء بعد عودتهم من المزارع ، فيقف بينهم في أثناء ذلك واحد من ذوى الدراية يشرح  
لهم وسائل الحياة الصحية ويبصرهم بمزايا النظافة ، ويذكرهم بأن الدين أمر بها وحث على  
اتباعها . كما أنب الشمس والهواء اللذين لا يكاد أن يراهما أو يمسهما إنسان في بيوتهم  
ضروريان للصحة ، وسلاحان لقتل الأمراض ، وأن التبرز حول المنازل ، وتلويث الأيدي  
وإراقة المياه القذرة وجعل سرايط البهائم أمام البيوت من العوامل التي تفسد الجو ، وتولد  
الحشرات ، وتأوى الذباب والبعوض ، وتبعث الوباء والوخم في الجو ، وتنتشر الأمراض ،  
وتنتقل العدوى بينهم . واذ عرفوا أن الرمد والعشى وأمراض الصدر والبلهارسيا والانكلستوما  
لا يكاد يفلت من شرها أو شر بعضها واحد منهم ، وأن نسبة المرضى بها في مصر أكثر من  
نسبتها في أى بلد آخر ، وأن سبب إصابتهم بهذه الأمراض ناتج من إهمالهم النظافة ، وتعرضهم  
للأقذار ، وإفسادهم للجو الذي يعيشون فيه أمكنهم بقليل من العناية بأنفسهم ونظافة أبدانهم  
أن يحاربوا هذه الأمراض التي تفتك بهم وبأبنائهم من بعدهم ، وتتعدهم عن الكسب  
والعمل ، وتسرع بهم الى الموت والفتاء ، وتجملهم آخر الأمر شعبا هزيلة ضعيفا ،  
لا يستطيع أن يحى نفسه ، ولا يخشى عدوه بأمه .

نعم يرى كثير من العمدة أبناء القرية يقعون في شرك المشعوذين ، وحيل المضللين الذين يتخدعونهم بادعاء السحر ، والاتصال بالجان ، واطلاق البخور ، وكتابة التائم في عمل الحب والكشف عن الكنوز ، ومعالجة الأمراض ، ومعرفة البيخت ، فيسلبون أموالهم ، ويفسدون عقولهم ، ويسبئون صحتهم ، ويفرقون بين المرء وزوجه ، ويعكرون الجو بين الرجل وقومه ويسبسون في القرية بلاء كبيرا ، وشرا مستطيرا ، وكل ذهبتهم شخصيتهم أرواح ، ووقعت بسببهم شرور . ومن الأسف الا نراهم يأخذون على أيديهم . ويحجون أهلهم وقومهم من بلائهم وضلالهم . بل قد نرى بعض العمدة أنفسهم يقع ضحية لهم ويخدع بكيدهم ومكرهم فأول واجب عليهم هو تطهير البلاد من شر هذا البلاء ومحاربة هؤلاء المتعطلين المفسدين . ولهم في رسول الله أسوة حسنة اذ يقول عنه القرآن الكريم (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء) .

ليست مهمة العمدة مقصورة على مقابلة جندي أو تلقي اشارة من المركز ، أو مرافقة الممارن أو المحضر ، ولكن مهمتهم أسمى من ذلك وأعظم ، ورسالتهم لوطنهم أجدى من هذا وأكرم . كل منهم في قريته راع لما ومسئول عنها أمام الغدير وأمام الله والوطن ، مسئول عن صحة أهلها وعن تحسين المعيشة فيها . وتوفير السعادة بها . مسئول عن تلميم الجاهل . وارشاد الضال ومحاربة الآثم . وتشجيع العامل وإنهاض الخامل . مسئول عن كل أولئك كما هو مسئول عن أبنائه وزوجه وأسرته . عند ذلك يمكن العمدة أن يباهى بمنصبه ويتحدث بخدمة وطنه . أما المظاهر العتيقة البالية التي تدور حول كسب العمدة سلطانه من الحكام وسيطرته الفارفة على أهل القرية وفرض الطاعة عليهم فرضا دون أن يشعروهم بفضله ، أو يبينهم على كسب خير ودفع خير فذلك أمر لا يلائم ما يتطلع اليه كل مصرى من النهوض بالشعب وترقيته ، واستحقاق كل فرد للتقدير والاحترام من طريق عمله وجهده .

وعلى العمدة أيضا مسئولية كبرى في الجهل السائد بين أهل القرى . وفي وسعهم انتقاد الفلاحين من بلاء كثير لو كانوا يشعرون بواجبهم نحوهم ويحسون أنهم إخوانهم وبنو عمومهم ونصراؤهم وعمالهم وأنسابهم وأقرباؤهم . هل ينكر أحد منهم أن السواد الأعظم من الفلاحين يؤمن بفائدة الوصفات البلدية وأثرها في علاج الأمراض . ويتفر من الأطباء ويفر من المستشفيات فراره من البلاء ؟ هل ينكر أحد منهم أن كثيرا من النساء في القرى يكحلن المصابين بالرمد من أطفالهن بوحل البرك والمستنمعات فيجلبن لهم العجى . وإن منهن من تبخر المحموم بروث الحمر فيموت محتقا . وإن كثيرا من الترويين مات أو أصيب بشلل أو عاهة أو عمى بتأثير الكي الذي يباشره أدعياء المعرفة من الجهال . بينما الأطباء موفورون بحمد الله في البلاد ، ولا يعظم على العمدة أن يبرم اتفاقا بينه وبين أى

طبيب على أن يزور قريته مرة أو مرتين أو أكثر في الأسبوع اذا صحت عزيمته على ذلك وهذا أمر لا يكف كل ريفي أكثر من بضعة قروش يدفعها كل شهر ويجمع منها أجر الطبيب وثمن الدواء . وبذلك يتيسر للعمدة أن يقيم في قريته صيدلية متواضعة تخنق على الأشياء الضرورية من الأربطة والتظن المطهر والتظرة والمراهم والمنبهات والمسكات والمتاهرات وأدوات الاسعاف وغير ذلك إذ أن كل انسان يعيش في القرى ويعمل في الزراعة معرض للغرق والحريق ، معرض أن يقع عليه جدار أو يصاب في شجار ، معرض أن تلدغه عقرب أو أفعى ، معرض في كل وقت لمفص أو جرح أو كسر أو إغماء . فحاجة الفلاحين إذن ضرورية لتوافر المسكات والمسكات لديهم . وحينئذ يمكن أن يؤمن الفلاح بفضل الطبيب . ويصون نفسه من شر المرض . وينسى تلك الخرافات التي تملأ رأسه وتسيطر على فكره وتوقعه في بلاء المرض وتسوقه الى الفناء .

### العمدة والتعاون والمؤاساة :

ولا شك أن خيراً ما يتجه إليه العمدة الصالح هو بث روح التعاون بين أهل القرية ، وذلك يتطلب عمل العمدة على أن يأنس أهل القرية فيه الثقة والأمانة والغيرة على مصالحهم فيستطيع بعد ذلك أن يكون سفيرهم في انتقاء البذور وشراؤها وفي بيع القطن وأخذ تسليف عليه ، وفي جمع المبرات والصدقات من القادرين لتوزيعها على المحتاجين ، وفي تأليف مجلس قروي يعمل على إصلاح ذات الدين ، وترقية شئون القرية . كما أن مؤاساة الناس في مصائبهم ، ومعاونتهم في شدتهم ، من أهم الصفات التي تزيل الضغائن وتمسح النفوس وتعود بالأثر الطيب على أهل القرية فيصير العدو حبيبا والبعيد قريبا والخم مناصرا ، ولهذا أشار الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز فقال «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان» كما قال جلي شأنه «ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم» .

هذه بعض المبادئ التي نظن أن العمدة لو ساروا على ضوئها وتمسكوا بمبادئها لقاموا بتصويب كبير في النهوض بالفلاح ، ووفروا على الحكومة مجهودا عظيما يحسن أن تستخدمه في مشروعات أخرى تعود على الأمة بالخير والرفاهية .

وفي الخلق أن بعض العمدة في البلاد فطنوا الى واجبهم ونهضوا بقراهم فأصبحت نموذجاً حسناً للريف المصري الجميل ، وأصبح أهلها طرازاً للفلاح المصري الذي ينبغي أن يكون ، وانطلقت ألسنة الناس بالثناء عليهم بين كل هيئة وفي كل مكان ، فعسى أن يتنافس العمدة في وسائل إصلاح القرى ، فإن الإصلاح والنهوض بالوطن خيراً ما يتسابق إليه العاملون المخلصون .

حسن علوان